INTERNATIONAL JOURNAL OF EDUCATION, LANGUAGE AND SOCIAL SCIENCE (IJELaSS)
Vol. 2, No. 2, December 2024
P-ISSN: 2988-6279, E- ISSN: 2988-5078

أهمية دراسة علم التصوف بالنسبة لعلم الفقه عند الإمام الشاطبي

Ivan Wahyudi[1], Jumiadi[2], Al Imam[3]
[1] STAIN Teungku Dirundeng Meulaboh, Indonesia
[2] STAIN Teungku Dirundeng Meulaboh, Indonesia
[3] STAIN Teungku Dirundeng Meulaboh, Indonesia

Article Info

Article history:

Received 2024-11-21
Revised 2024-12-15
Accepted 2024-12-28

Keywords:

علم التصوف
علم الفقه
الإنسانية
الأخلاق

مستخلص البحث

إن هدف التعليم وجود قيمة الأخلاق الإنسانية في المواد التعليمية وله تأثير إيجابي كبير على تحسين الجودة الذاتية لدى الطلاب، لأن قيمة الأخلاق الإنسانية هي أحد الأهداف الرئيسية في التعلم. أما هدف هذا البحث فهو معرفة قيمة الأخلاق الإنسانية في فن علم التصوف من دراسة كتاب تعليم الأخلاق لطلاب الثانوية في معهد دار الفقيه اتجيه جنوب غرب وأما خطوات تحليل البيانات في هذا البحث، فهي بيان أهمية علم التصوف وعملية التحليل للاستفادة من ثمرة العلم. المدخل المستخدم في هذا البحث يعتمد على المدخل النوعي لدراسة الكتب. وهو بحث عن الكتب والمؤلفات التي تتعلق بالمشكلة التي ستتم مناقشتها. أما نتيجة البحث فهي: أولا بيان قيمة الأخلاق الإنسانية في علم التصوف من دراسة كتاب تعليم الأخلاق لطلاب الثانوية في معهد دار الفقيه اتجيه جنوب غرب. ثانيا: يبين أن حقيقة تعليم علم التصوف ليس مجرد تزيين طالب العلم بالأخلاق الكريمة في حياته اليومية ولكن ليمارس كل عباداته المحضة لا بد أن يعمل مطابقا لعلم التصوف لكل طالب علم. لما رأيت كثيرا من طلاب العلم فى زماننا يصلون إلى العلم ولا يصلون إلى منافعه وثمرته وهى العمل به ونشره . يحرمون لأنهم أخطأوا طريقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، ولاينال المقصود قل أو جل، فأردت وعزمت أن أبين لهم طريق التعلم على ما رأيت فى الكتب وسمعت من أساتذتي أولي العلم والحكمة، رجاء الدعاء لى من الراغبين فيه، المخلصين، بالفوز والخلاص فى يوم الدين، بعد ما استخرت الله تعالى فيه.

This is an open access article under the CC BY-SA license.

Corresponding Author

Ivan Wahyudi
STAIN Teungku Dirundeng Meulaboh,
Jalan Lingkar Kampus, Alue Peunyareng, Meulaboh, Aceh, Indonesia, 23615
Email: ivanwahyudisulawesi@gmail.com

المقدمة

إن الأدب كما في الحديث درجته فوق العلم؛ ومن تعلم العلم ولم يتعلم علم الأخلاق فلا فائدة له في طلب العلم. وهذا الكتاب عبارة عن تأويل أخلاقي لمقاصد الشريعة، أحاول التأسيس فيه لفلسفة خلقية إسلامية تقوم على المصلحة التي هي من جهة المصدر الحقيقي للخيْرِيّة و"الغاية الأسمى والمقصد النهائي للأخلاقَيّة" ومن جهة أخرى تؤكد الطابع العملي للأخلاق. وبهذا حاول أن يتجاوز عيوب الاتجاه المثالي والتفكير النظري في الأخلاق بعد أن أصبح موضوعها – لدى كثير من الباحثين في العصر الحديث بحسب المؤلف – النظرية الأخلاقية لا الحياة الأخلاقية. (Muhammad Khotibul Umam, 2020)

لم يكتب للتفكير الأخلاقي – بحسب علوان – أن يستقل استقلال المعارف الإسلامية الأخرى فغلب عليه العمل، واستند مباشرة إلى الوصايا القرآنية والنبوية، وإلى المنقول من الحكمة الشرقية واليونانية، وما صنفه صوفية الإسلام في تزكية النفوس ومراقبتها. ومن ثم تأخر قيام الأخلاق علماً مستقلا مؤَسسًا على نظرية أصيلةٍ أصالةً مطلقة" وربما حال دون ذلك أيضًا الطبيعة العقلية لأصول الفقه؛ فهو علم فلسفي معبِّر عن روح التفكير الإسلامي (عبد الرازق ،2010)

يمثِّل الفقه صورته العملية، فلم يكن ثمة باعث إلى الوقوف على ما يستحق الإتمام. ولكن لما استقل التشريع عن أصول الفقه – حديثًا – فقدَ التشريع أساسه الفلسفي وتوافرت الدواعي إلى وجود نظرية في الأخلاق مرتبطة بالتشريع تضمن مكانًا للشريعة في الدولة الحديثة، وتمثل مدخلاً أخلاقًيّا يبدد الخوف من تطبيقها. هذا المدخل الأخلاقي هي مقاصد الشريعة التي تمثل الجانب الأخلاقي لعلم الأصول، وتقترب من القانون قربَها من فلسفة الأخلاق.

منهج البحث

هذ البحث هو نشاط بحث عن الكتب والمؤلفات التي تتعلق بالمشكلة التي ستتم مناقشتها (Wahyudin Darmalaksana, 2020). أجريت البيانات في هذه الدراسة باستخدام تحليل المحتوى وتحليل البيانات من حيث المدخل النوعي ومن أهم مراجع الكتب التي نبحث فيها أولا: كتاب (محيي الدين ابن عربي، آراؤه الفقهية والأصولية. القاهرة: مركز تراث .الشاطبي)، و ثانيا: كتاب (حللي، عبد الرحمن، مفهوم التقوى والمنظومة الأخلاقية القرآنية، البنية والسياق) و ثالثا: كتاب (إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي _بيروت_ دار الكتب العلمية) وأما مراجع الكتب (اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي، لأبي ناصر عبدالله بن علي السراج الطوسي _بيروت_ دار الكتب العلمية) و كتاب (تعليم المتعلم، لزرنجي _اندونسيا_ الحرمين) وكذلك كتاب (أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة_القاهرة_ الهيئة المصرية العامة للكتاب).

نتائج البحث

وقد اختار المؤلف الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي (ت. 790/1388)؛ لأن الشاطبي أراد فيه تخليص علم الأصول مما لا فائدة عملية فيه، ووسّع فيه مبحث المقاصد بعد أن كان – في الأعمال السابقة له – موجزًا، وأضفى على المقاصد طابعًا عامًّا متجاوزًا الخصوصية المذهبية. وقد حاول علوان – في أكثر من موضع – أن يربط بين منجز الشاطبي الفكري وبين البيئة التي تشَكّل فيها الشاطبي نفسياً ومذهبياً وثقافيًّا. فمن جهة رأى – في الفصل الأول – أن الطبيعة الأندلسية أثّرت في شخصية الشاطبي؛ فمال إلى الحفاظ على الأخلاق العامة مع نزوع إلى التحرر، كما أن الحالة السياسية والمذهبية القلقة صرفته إلى العناية بوحدة المذاهب، والحالة العلمية أَهّلتْه – بمعارفها العملية والنظرية: فقهياً وأدبياً وفلسفياً وكلامياً وصوفياً– للوقوف على نقطة لقاء بين الفكر والواقع بحسب المؤلف. ومن جهة ثانية رأى – في الفصل الثاني – أن هذه النقطة التي يلتئم بها الفكر والواقع ويجتمع عليها المختلفون هي المصْلحة المنضبِطة

بالمقاصد أو الضروريات الخمس التي ينبغي أن ترجع إليها كل الأدلة. ومن جهة ثالثة قرر – في الفصل الثالث – أن نظرية المقاصد كما قررها الشاطبي أثرٌ للعقلية الأندلسية النافرة من التعقيد والتنظير الذي لا فائدة منه، والمائلة إلى البساطة والواقع. ومن ثَمّ رفض الشاطبي فكرة الجوهر باعتبارها فكرة ميتافيزيقية، وجعل أصول الفقه فلسفة عملية نافرة من التفلسف النظري، بل إن الأفكار النظرية ا لكونية تحَوّلت لديه إلى أفكار إنسانية؛ فالعلاقة بين الأسباب والمسَبّبات علاقة ضرورية لا لشيء إلا؛ لأنها شرط القدرة التي هي مناط التكليف.

و لكن هذا الربط بين نظرية الشاطبي وبيئته الأندلسية، يثير التساؤل عن أسباب اختلاف الشاطبي عن معاصريه، وعن خصوصية نظريته التي أسسها على أعمال سابقة لأبي المعالي الجويني (ت. 478/1085)، وأبي حامد الغزالي(ت. 505/1111)، والعز بن عبد السلام(ت.66/1262)، وشهاب الدين القرافي (ت. 684/1285) وغيرهم، بالإضافة إلى أن الشاطبي كان مالكياً صرفاً كما يظهر في أعماله وفتاويه، وقد أراد – بكتابه – التوفيق بين مذهبه المالكي ومذهب الحنفية في المصلحة المرسلة. وكل ذلك لا يمكن ربطه فقط بالبيئة الأندلسية؛ إذ أن الأفكار الرئيسة لنظريته كانت متداولة قبله، ولذلك ثمة انتقادات جدية لمزاعم المؤلف حول تجاوز الشاطبي للخصوصية المذهبية، وحول نسبة النفور من التعقيد والتنظير إلى ما سماه العقلية الأندلسية.

والمصلحة – بوصفها مبدأ ثلاثة أمور: أنها ترجع إلى الضروريات الخمس، وتقوم على منهج الاستقراء المعنوي، وعلى القياس الأصولي .فالمصالح الضرورية هي أساس كل مصلحة وهي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال؛ فهي الأصل وباقي الأدلة فروع لها (ص. 42)، فلا يطغى فيها النص على المعنى ولا المعنى على النص. والمصلحة هي الفلسفة العليا الحاكمة لنظر الفقيه أو المشرّع، وهي معيار الحكم على نتائج فكره واجتهاده، وبها يكون استمرار الشريعة. والمصلحة هنا ليست شيئاً مخالفًا لمقاصد الإنسان، بل مقاصد الشارع من المكَلّف هي مقاصد الإنسان بمفهومه

الكلي، ولذلك كانت مراعاة في كل مَلّة (الشاطبي ،2006، 2/8) فهي تشبع حاجات الإنسان وتكمل ذاته، والأخذ بها تحقيق لمصلحته في المقام الأول.

الكشف عن هذه الضروريات الخمس – كما هو مبين في الفصل الرابع – يقوم على منهج الاستقراء المعنوي الذي أشار إليه الشاطبي (2006، 2/42)، والمعَبّر عنه في علم الحديث بالتواتر المعنوي، "وهو منهج يفيد اليقين، يدرك به العقل معاني مستخلصة من واقع تجريبي يأخذ حكم الضروري تمثله النصوص، يرتقي فيها من معنى إلى آخر حتى يصل إلى معنى كليّ(ص. 63). وكلمة تجريبي هنا تقابل كلمة نظري التي اتصف بها التفكير الأخلاقي. ويتجلى هذه التجريب – بحسب علوان – في استناد هذا المنهج إلى دعامتين: الأولى: الذوق الفطري المعبِّر عن سلوك الإنسان الأمِّي الباقي على أصل ولادة الأم (الشاطبي ،2006 2/58)؛ متجلياً في موقفه من الطبيعة والجماعة، وفي لغته المشتركة الكاشفة عن معاني نفسه. والثانية: ملكة التخييل والتمثيل" وهي التسوية بين المحسوس والغيبي التي يصل العقل من خلالها إلى صورة ذهنية لها معنى. والقياس الأصولي – من حيث هو إلحاق فرع بأصل لعلة جامعة – إرهاص للاستقراء المعنوي، قريب من الذوق الفطري، غير محكوم بصورة القياس الأرسطي، يراعي المعنى أولًا، ويقوم على العلة والدلالة والمناسبة، وهي معانٍ تستفاد من مسالك دقيقة تسمى مسالك العلة.

الطبيعة التجريبية للقياس الُأصولي التي كان قد كشف عنها قبل ذلك (علي سامي النشار 1984، 130_131)، والطبيعة التجريبية للاستقراء المعنوي، تفيدان أن معرفة مباينة كل المباينة لما تقدمه الصوفية والمذاهب الأخلاقية المثالية؛ لأنها معرفة موضوعية وعملية وكلية، وليست ذوقية ذاتية لا تلزم غير صاحبها. وكما يباين الاستقراء المعنوي المناهج الصورية والذوقية والمثالية، يباين العلمي؛ لأن هذا الأخير مختص بالعلوم الطبيعية، ولا يمكن تطبيقه في دراسات الاستقراء الإنسانية التي تتسم بأنها حيوية تتدخل فيها إرادة الإنسان، وهو قاصر عن تلبية مطالب العقل في الإحاطة بالعالم وإدراك المطلق، وعاجز عن أن يقدم أساسًا أخلاقيًّا؛ لأنه يبدأ تجريبيًّا وينتهي

تجريبًيّا كما بدأ، ونتائجه محكومة بظروف التجريب. أما الاستقراء المعنوي فيبدأ تجريبًيّا وينتهي إلى استخلاص كلّيّات ضرورية ويقينية. من خلال هذا التفريق يبتغي (علوان) – فيما يظهر – أن ينفي عن الأخلاق كونها مبحثاً تجريبًيّا بالمعنى العلمي، وليس تفسيرُها بالبنية المادية الفَجّة للإنسان إلا أثرًا من آثار الثقة المفرطة بالمنهج العلمي في حدود المادة المحضة .بهذا المنهج المفيد لليقين يتبين أن المصلحة هي المصدر الحقيقي للخيْرَيّة، بل هي الغاية الأسمى والمقصد النهائي للأخلاقَيّة (ص. 95)؛ فهي قيمة مطلقة تختلف عن القيم الوسيلية التي تعد شروطًا واقعية، ومعايير عملية لما هو أخلاقي. على أن هذه الشروط الواقعية تدرك في ثلاثة مستويات متداخلة هي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، ولا تستقل واحدة منها عن الُأخرَيين دون أن تخل بالمصلحة بوصفها قيمة خلقية. وهي ضابط للسلوك وغاية في الوقت ذاته، وتجريبية تعبر عما هو كائن، ومثالية تعبر عما ينبغي أن يكون، أي هي معيارية وغائية معًا. وهي كذلك كلية ومطلقة وثابتة، يختص معيارها الأخلاقي بالقدرة على الترجيح والموازنة عند الحكم على الأفعال، والشمول، والموضوعية. ولكنها مع ذلك تقبل الاستثناء؛ لأنها عملية لا صورية، شريطة أن تكون المصلحة هي المسوغ لهذا الخروج على القاعدة الخلقية، وأن تكون الغاية الخلقية المنوط بها تحقيق المصلحة أسمى في السلم الخلقي من القاعدة.

وقد أجاد (فهمي علوان) عندما أشار إلى أن هذه القيمة العليا المتمثلة بالمصلحة بمفهومها الكلي، وهذه القيم الوسيلية التي تتغَيّا استمرار الحياة وصلاحها، إنما تهدف – بطابعها العملي – إلى تحقيق الذات الكاملة بجميع جهاتها الروحية والمادية. فالسعادة التي تدعو إليها سعادة عملية إيجابية تقر برغبات الإنسان وشهواته، لا سعادة سلبية قائمة على النظر والتأمل المثالي الخالص كما هي لدى الفيلسوف والصوفي. ومما يسترعي النظر أن (علوان) يعد هذه الرؤية الأخلاقية القاصدة إلى تحقيق الذات الكاملة، المعترفة بالقيم الجسدية: أساسًا أخلاقًيّا، فيذكر أن الشاطبي موافق للفلاسفة القائلين: إن القيم البيولوجية هي الدعامة ا لكبرى لكل حياة أخلاقية (ص. 112)، وإن كان يشترط اقترانها بالقيم الأخرى.

على أنه تبقى مشكلة الحكم على النية؛ فيحلها (علوان) بجعل المصلحة حَكَماً في تمييزها؛ سعياً منه إلى تحويل الحكم الأخلاقي إلى حكم عمليّ خالص، فيربطها – في الفصل السادس – بالقيم الضرورية التجريبية، فتكون النية طيبة إذا وافق العمل المقاصد الأخلاقية. فإذا كانت مخالفةً للمقاصد والعمل موافق لها، فالعمل هو المقَدّم في ملاحظة الحكم الأخلاقي. فإذا كانت النية موافقة للمقاصد والعمل مخالف لها، فالعمل هو المقدم أيضًا كما يفهم (علوان) من كلام (الشاطبي)، وهذا محل إشكال. وعلى ذلك تتوقف أخلاقية النوايا والأفعال – بحسب علوان – على تحقيق القيم الضرورية تحقيقًا فعلًيّا، سواء علم الممتثل وجه المصلحة أم جهله. وبناء على ذلك تكون الحيل التي تكلم عليها الفقهاء مقبولة أو مرفوضة بالقياس إلى هذا المعيار ذاته، فما لم يناقض أو يهدم قيمة ضرورية مقبول، وما كان غير ذلك مرفوض.

ما الامتثال للأمر الخلقي فهو – بحسب الفصل السابع – ضرورة عقلية أساسها عملي، يقضي بها العقل عندما يعلم أن من وراء ذلك مصلحة لا تكفي فيها النية الحسنة، بل لا بد من الفعل الحسن، وعلى ذلك ليس هذا الامتثال امتثالًا لأمر مفروض من الخارج، بل هو حركة طوعية، أو هو – إن صح القول – امتثال مصلحي. "وليست الغايات الخاصة المتصلة بإشباع حاجات الممتثل وشهواته قادحة في أخلاقية الفعل؛ إذا ما حَقّق القيم الضرورية. ولا يكون الامتثال معقولًا في الحكم الأخلاقي حتى تتحقق القدرة عليه، ولا تكون القدرة على الفعل أو الترك متصَوّرة حتى يتوافر لها شرطان: خارجي يتمثل في اطّراد العوائد" كما يعبِّر الشاطبي(2006، 2/238_241) أو العلاقة السببَيّة، وداخلي يتمثل في الاستطاعة. وتتحقق الاستطاعة بأن يتجه الأمر الأخلاقي إلى جملة الكائن الإنساني، فلا يكَلّف بما هو ضد طبيعته النفسية والجسدية؛ إذ من المستحيل أن نقيم مذهباً أخلاقيًّا هو في أوامره ضد طبيعة الإنسان؛ لأن ذلك – كما يقول الفقهاء – تكليف بما لا يطاق (ص. 142). بيد أن الامتثال محتاج إلى الجزاء حتى يضمن بقاءه، وهنا يستدعي (علوان) دور الدين في الضبط الأخلاقي بعيدًا عن المصلحة، فيقرر أن الجزاء قادر على تحقيق ذلك، حتى لو كان ثمة أفعال غير أخلاقية لا يتعلق بها جزاء، طالما أن المقاصد ستتحول إلى سلوك عملي

بواسطة الإنسان من خلال النية ... والنية ترتبط في أساسها بالجزاء الديني (ص. 154). على أن الجزاء يتسع لديه ليشمل الجزاء الدنيوي بطبيعته القانونية والأخروي المتصل بالنية.[1] وعلى أية حال فإن القانون الأخلاقي – كما يقرره – يحمل في ذاته دواعي الامتثال من خلال طبيعة الفعل الخلقي العقلية وغاياته وتوافقه مع الميول الإيجابية، وهي الأشياء التي يرى فيها المذهب الإنساني المؤكِّد للطبيعة المتكاملة للإنسان: ضمانًا أخلاقيًّا، وهي نقطة لقاء بين الشاطبي وما يقرره المذهب الإنساني.

الخلاصة

الأول: أن (علوان) يقدم تأويلاً أخلاقيًّا عمليًّا لمقاصد (الشاطبي)، ويسعى إلى إيجاد أساس واقعي للأخلاق كامن في الطبيعة الإنسانية أو الفطرة وتجلياتها الاجتماعية من جهة، وفي الوحي من جهة أخرى، كما يقدم نقدًا للتفكير النظري والمثالي في القيم متخذًا من المصلحة مبدأ أوليًّا لبناء نظرية أخلاقية متكاملة.

الثانى: فالمصلحة هي المثل الأعلى والقيمة العليا الغائية التي تُحفظ بحفظ القيم الخمسة الوسيلية، فهي مبدأ كلي وضروري، وأصيل أصالة مطلقة، وثابت غير متبدل، وموضوعي يتفق عليه الناس، ومستخلص من واقع التجربة البشرية. فالمصلحة مبدأ ديني وإنساني معًا يسعى إلى الاحتفاظ بالحياة والرقي بها باعتبارها تمثل القصْدَيّة المطلقة، فما كان كذلك فهو أخلاقي، وما لم يكن كذلك فغير أخلاقي. فالإنسان في النهاية يحدده فعله الأخلاقي في هذه الحياة الأولى، فالأثر الأخلاقي للفعل مستمر لا ينقضي.

الثالث: لا فصل بين الدنيا والآخرة كما لا فصل بين الأخلاق والأعمال. ولا يمكن الوقوف على مفكر يصدر عن الإسلام في تفكيره لا يستبطن هذا التصور. ولذلك فإن القول بأن المتصوفة

[1] نظر في نظرية المنفعة وتعديلاتها والنقد الموجه إليها إبراهيم د.ت، 147–162.

عنوا بالبواعث والفقهاء عنوا بالنتائج و(الشاطبي) عُني بالاثنين معًا، صادر عن إمكان الانفصال في الاشتغال والمعالجة الفنية لا في المآل، وإلا فإن (الفتوحات المكية لابن عربي ت. 638/1240) زاخر بالمباحث الفقهية والأنظار الكلامية وفق منهج خاص به (السيد 2022.)

المصادر

عبد الرحمن، طه .2000. سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحضارة الغربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي .

النشار، علي سامي .1984. مناهج البحث عند مفكري الإسلام. بيروت: دار النهضة العربية

السيد، أسامة شفيع .2022. محيي الدين ابن عربي: آراؤه الفقهية والأصولية. القاهرة: مركز تراث .

الشاطبي، أبو إسحاق .2006. الموافقات في أصول الشريعة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب .

عبد الرازق، مصطفى .2010. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

إبراهيم، زكريا. د.ت. المشكلة الخلقية. القاهرة: مكتبة مصر

حللي، عبد الرحمن. .2021 مفهوم التقوى والمنظومة الأخلاقية القرآنية: البنية والسياق

file:///C:/Users/USER/Downloads/jie-article-10.1163-24685542-20230089.pdf

https://ejournal.uin-suka.ac.id/tarbiyah/almahara/article/view/8595/3255

Mabrurrosi Mabrurrosi, (2020) "Analisis Buku Ajar Bahasa Arab Karya Dr. D. Hidayat," Al-Irfan: Journal of Arabic Literature and Islamic Studies3, no. 2 : 237–57,

https://doi.org/10.36835/al-irfan.v3i2.4016

Muh. Karumiadri, Mutohharun Jinan, Muh. Nur Rochim Maksum. (2023) "Nilai-Nilai Pendidikan Humanistik Menurut Prof . Dr . Hamka." Murhum: Jurnal Pendidikan Anak Usia Dini4, no. 2 : 78-165

Munir. (2023) "Keterampilan Dasar Berbahasa Arab Melalui Strategi Pembelajaran Aktif Rahmaini." Journal on Education05, no. 04 : 77-17371

Singer, Peter. 2011. Practical Ethics. Cambridge: Cambridge University Press.